آفاق الثقافة والتراث

مجلة
فصلية
ثقافية
تراثية

تصدر عن دائرة البحث
العلمي والدراسات
بمركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث

السنة السادسة ، العددان الثاني والعشرون والثالث والعشرون - جمادى الثانية ١٤١٩ هـ - أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٨م

مخطوط الكواكب الدرية وتخميساتها - ٨٥٧ هـ

MANUSCRIPT " AL KAWAKIB AL DURRYA WA TAKHMISATIHA" 857 (A-H)

نحو فقهٍ حضاري معاصر

«رؤيـة منهجيـة قرآنيـة»

الدكتور: جاسم محمد الفارس

بغداد - العراق

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام الهدى والرحمة رسول الله محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر الميامين... وبعد ،

فيعد الفقه العلم الإسلامي الصافي ، الذي كان حصيلة وعي العقل المسلم بالقرآن الكريم والسنة المطهرة في إطار معالجة شؤون الإنسان المسلم والمجتمع المسلم ، في حضارة كانت تنمو نموا سريعا منذ أن فهم الإنسان العربي ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق..﴾؛ إذ امتدت هذه المعالجة لتشمل مكونات الحضارة الإسلامية الناهضة يومئذ.

فكان الفقه حينذاك فهمًا لنصوص الشريعة وعلمًا بتنزيلها على واقعٍ ينمو ويتسع في حركة حضارية ، توجهها الشريعة بشموليتها وواقعيتها ، من خلال عقل قدراته عالية في النفاذ داخل الشريعة والواقع ، وفي ربط المقاصد بحركة المجتمع والتاريخ ، في إطار رؤية توحيدية لمكونات الشريعة العقائدية والعملية والعلمية ، مستهلين «الدرس النبوي» في إعمال العقل في ظواهر الوجود الطبيعي والإنساني، من أجل أن تظل الشريعة حقيقة حية فاعلة في حركة التاريخ ، توجهه إلى حيث النصر والتألق الحضاري.

حاجة العصر إلى فقه حضاري جديد

في ظلّ فضاءٍ حضاريّ إسلامي متألق عبق القرآن الكريم والسنة النبوية مداه الواسع قدّم الفقه الإسلامي للإنسان والمجتمع والعالم قوانين تنظيم حركتهم، التي عززت انتصارات الإسلام والمسلمين الحضارية الشاملة، فشمل الجميع بالرعاية الإسلامية، التي أعادت للإنسان كرامته وعزته وفاعليته في إعمار العالم.

غير أن سنة التاريخ، التي أشار إليها القرآن الكريم بـ «المداولة» ﴿**وتلك الأيام نداولها بين**

الناس...﴾[1] فعلت فعلها يوم توقف العقل المسلم عن الاجتهاد وفهم العالم في ضوء الوحي، فتبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدّل الخلق من أصله، وتحوّل بأسره، كما قال ابن خلدون.. فأصاب «القرح» الحضارة الإسلامية بفعل عوامل كثيرة داخلية وخارجية، يطول الحديث فيها، أدى إلى خمولٍ وركود في حركتها. وكان من أبرز مظاهر ذلك الخمول كسل العقل المسلم عن مواصلة الإبداع والعطاء الحضاري المنضبط بمنهجية القرآن، التي أثرت معانٍ كثيرة في تطور الشرائع منذ آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

ينبغي للعقل المسلم اليوم أن يقف على تلك المعاني، ويستنبط قوانين حركتها وتطورها كما عرضها القرآن الكريم؛ ليعرف معنى الانتقال من الطبيعة وحاجاتها إلى الحضارة وحاجاتها، ويستمد من القرآن الكريم والسنة المطهرة قوة دفعٍ جديدة للمشروع الحضاري الإسلامي المعاصر؛ لإزالة آلام ذلك القرح المذل، ويصنع في ضوئها قوانين النهضة الجديدة، فيعيد للأمة الإسلامية، وفي مقدمتها الأمة العربية، موقعها الشهودي على العالم، وحضورها الفاعل في بناء الحضارة الإنسانية على أسس الحق، والعدل، والمساواة، والاستقامة، والتقوى..

لذلك أصبح أمرًا ضروريًّا التفكير بإنجاز فقهٍ حضاري جديد، يعيد للعقل المسلم مكانته العلمية في إعمار العالم، ويعيد للإسلام عالميته من خلال استحضار موضوعات القرآن الكريم والسنة النبوية: الإنسانية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتاريخية.. إلخ. يعيد في ضوئها صياغة مكونات الحضارة الإسلامية المعاصرة: الإنسانية، والاقتصادية، والسياسية، والفكرية، والأدبية، والجمالية، مثل فقه القوة، وفقه الجمال، وفقه الحرية، وفقه الدولة، وفقه الشورى إلخ، من خلال مناهجَ أصولية معاصرة، تستلهم خبرات الأولين، وتجتهد في تأسيس الجديد.

ولهذا كان هذا البحث محاولة متواضعة في بيان بعض ملامح هذه الضرورة وتوضيحها من خلال مكوناته التي هي: المقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

تناول المبحث الأول: الوضع الدولي عشية ظهور الإسلام: وضحنا فيه موقع العرب قبل نزول القرآن في ظل الحضارتين اللتين كانتا تتقاسمان قيادة العالم، وهما الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية الشرقية، ووضحنا كذلك أهم ملامح هاتين الحضارتين القائمة على التجانس الفكري، ووحدة القرار السياسي والاقتصادي والعسكري، وأثر كل هذا في وحدة البنية الحضارية؛ لنوضح أثر القرآن في إحداث النقلة الحضارية للعرب، التي أعادت تشكيل العالم لصالحهم أولاً، ومن ثم لصالح العالم أجمع، في ظل (القيادة القرآنية) التي مثلها الرسول ﷺ ومن بعده صحابته الكرام.

أما المبحث الثاني: من النهضة إلى الخمول، فتناول ملامح الإبداع الحضاري، مركزين على العطاء الفقهي والأصولي (المنهجي) في صناعته، ذلك العطاء الذي أسهم في تنظيم حركة الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم، والحضارة الإسلامية، من خلال السمة البارزة لذلك العطاء، (الوحدة المتنوعة).

وانتهى المبحث عند مرحلة الجمود والخمول اللذين سريا في أدق شعيرات الحضارة الإسلامية.

أما المبحث الثالث: نحو فقهٍ حضاري معاصر، فتناول ملامح الفقه الحضاري الجديد المطلوب من خلال استلهام بعض القضايا الحضارية الكبرى كما هي في القرآن الكريم.

اعتمد البحث المنهج العلمي الإسلامي التوحيدي القائم على وحدة القراءتين: قراءة القرآن في ضوء الوجود، وقراءة الوجود في ضوء القرآن الكريم، منطلقين من ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ بغية تحقيق هدفين مركزيين من الأهداف القرآنية الكبرى:

الأول : استعادة الموقع الشهودي للإسلام والمسلمين على العالم ﴿**وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداءَ على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا**﴾(٢).

الثاني : استلهام القرآن الكريم والسنة النبوية في بناء المشروع الحضاري الإسلامي، الذي يشكل (إعمار العالم) البؤرة المركزية فيه، التي تشكل أسس الحق، والعدالة، والمساواة، والحرية، والجمال، قواعده المركزية. ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾(٣).

وأخيرًا كانت الخاتمة. التي اشتملت على بعض التوصيات التي نراها مهمة وضرورية.

أسأل الله التوفيق فهو الأعلم بما في النفوس... وهو العلي الحكيم... ﴿**وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب**﴾(٤).

المبحث الأول :

الوضع الدولي عشية ظهور الإسلام

عشية أن نزلت ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق..**﴾ كانت مكة تختصر الوجود العربي يومذاك بكل عناصره الفكرية، والعقلية، والسياسية، والاقتصادية..إلخ، كونها كانت المركز الديني، والتجاري، والسياسي، والاجتماعي للجزيرة العربية، وكذلك كانت أقوى مراكز القرار الديني والسياسي والاقتصادي. أما على المستوى العقلي فكانت مكة تعلم أشياء كثيرة.. وتفتقد إلى أشياء أكثر. وكان العرب يعلمون وجود الله تعالى بحكم تأثير (الحنفاء) أتباع إبراهيم عليه السلام. ﴿**قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكّرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يُجير ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون**﴾(٥) ، ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله..**﴾(٦)، ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون**﴾(٧).

لكنهم أفسدوا علمهم هذا بتعليلاتٍ ساذجة منحرفة عن التوحيد حين عبدوا الأصنام: ليقربوهم إلى الله عز وجل. ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾(٨).

فكانوا كما أشار القرآن الكريم: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾(٩).

وبجانب هؤلاء كان نفرٌ لا يؤمن بوجود الله تعالى إطلاقًا. وتبعًا لهذا لم يؤمنوا بالنشور ولا بالحياة الأخرى بعد هذه الحياة الأولى. ﴿**وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**﴾(١٠).

وكان هناك الصابئة الذين زاغوا عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الكواكب، وهناك اليهود والنصارى والمجوس. فالذين حافظوا من هؤلاء جميعًا على إيمانهم بالله تعالى قبل مجيء الإسلام فلهم أجرهم عند ربهم. ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**﴾(١١).

كان للديانة الفارسية حضورٌ في بعض نواحي مكة، وما حولها، حيث امتدت الديانة الفارسية إلى

الحيرة؛ فقد حاول قباذ نشر الديانة المزدكية، ولما حاول المنذر بن ماء السماء مقاومته أقصاه عن الملك، وأتى بالحارث الكندي ليعينه على ذلك، إلا أن مجيء أنوشروان، الذي أعقب قباذ، أعاد المنذر إلى العرش، واضطهد المزدكية، ولكن لصالح الزرادشتية هذه المرة[١٢]. وهي الديانة التي تعتقد بوجود أصلين للعالم؛ أصل الخير، وهو النور (يزدان)، وأصل الشر، وهو الظلمة (أهرمن). وقد رد القرآن الكريم على هذا الاعتقاد الباطل. **﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾**[١٣].

فالنور والظلمة ليسا مبدأين أو أصلين، وإنما هما من مخلوقات الله تعالى الذي أحسن كل شيء خلقه...

ناهيك وجود اليهود والنصارى بعقائدهم المعروفة التي انحرفت هي الأخرى عن حقيقة التوحيد الذي دعا إليه موسى وعيسى عليهما السلام..

■ واقع العرب الحضاري قبل الإسلام

إن هذا التشتت الفكري الذي صاحبه تمزّقٌ قبلي، وغياب سلطة مركزية موحدة، تقود قوة عسكرية موحدة، وتقوم على دستورٍ موحد. وكذلك وجود التحالفات التي عقدها ملوك الحيرة والغساسنة أو كندة مع الفرس والروم كانت لصالح الروم أو الفرس، وليس لصالح العرب؛ لأن معظمها كان قواعد عسكرية دفاعية للروم ضد الفرس، أو للفرس ضد الروم.

وكذلك غياب المنهج الفكري الذي يضم جهود العرب ويوجهها نحو قضية مركزية. كل هذا وغيره كثير أفقد العرب القدرة على الإسهام في القرار السياسي والاقتصادي والفكري العالمي؛ فوجودهم الحضاري كان يقوم على أشتات فكرية متناقضة، لا يلمها، ولا يمكن أن يلمها، منهجٌ موحد. ووجودهم الاقتصادي كان يتوقف على حجم الروافد الاقتصادية والتجارية الآتية من اليمن، أو الحبشة، أو العراق، أو الشام، أو من (الغنيمة) التي كانت حصيلة الانتصار في المعارك الأهلية الداخلية. كان وجودهم العسكري يقوم على حجم القبيلة التي تشكّل الوحدة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يومذاك، والتي كثيرًا ما شهدت حروبًا قاسية (عربية/ عربية) أوغلت في تمزيق الوجود العربي يومئذٍ.

في حين كانت الحضارتان المجاورتان الفارسية والرومية تتفقان على أرضية قوية من الأسس العقائدية، والسياسية، والاقتصادية، والفكرية، والعسكرية.

■ واقع الرومان الحضاري

فالحضارة الرومانية – ولا سيّما الشرقية منها – كانت دائمًا تعيد توحيد نفسها إثر كل انكسار تعيشه أمام الغزو الفارسي، فقد تمكن (ثيودوسيوس) من توحيدها سنة (٣٨٨م). وبعد انقسامها سنة ٣٩٥م بين ابني ثيودوسيوس؛ أركاديوس وهونوريوس على أثر الغزو الفارسي بزعامة الإمبراطور شابور سنة ٢٦٠م.

بينما نجحت الحضارة الرومانية، على الرغم من الانقسام الذي أصابها بعد سنة ٣٩٥م، في شقيها الشرقي والغربي في الحفاظ على تماسكها وامتناعها عن الذوبان. ذلك أن الحضارة الرومانية الشرقية لم تتخل عن الغربية حينما حاول الفندال غزوها سنة (٤٦٨م) في شمال أفريقيا.

لقد أخفقت الحضارة الرومانية الغربية في الحفاظ على وجودها عندما احتل الفندال شمال أفريقيا سنة ٤٧٦م، فتلاشى وجودها نهائيًا؛ لأنها لم تعرف كيف تحافظ على أسس وجودها

الحضاري، فكان في مقدمة الأخطاء القاتلة التي عملت على إنهائها استخدامها أصحاب الأموال والأملاك الكبار في وظائفها المدنية الكبرى، فمكنتهم بذلك من تطوير أملاكهم وثرواتهم، الأمر الذي جعلهم أصحاب نفوذٍ اقتصادي كبير، كانوا على استعداد لخيانة الحكومة في أيّ لحظة من أجل إنقاذ جزء من أملاكهم هذه، وقد كان ذلك كذلك حين خانوا الحكومة التي استخدمتهم. ولم يلبثوا أن اتفقوا مع قوّاد البرابرة المحاربين، الذين كانوا يقتطعون دويلات لأنفسهم على حساب حكومة إمبراطوريتهم.

في حين حالت الإمبراطورية الشرقية دون مثل هذه الممارسات، فمنعت أصحاب الأملاك الخطرين سياسيًا من الوصول إلى وظائف الدولة، وفسحت المجال لبعض محترفي الطبقة الوسطى، الذين كان معظمهم من رجال الفقه، الذين يحملون شعورًا وطنيًا تمثّل في الحفاظ على الإمبراطورية التي وجدوا فيها ما يحافظ على مصالحهم..

كذلك فقد تمكّن الامبراطوران مارشيان (٤٥٠ - ٤٥٧م) وأنستاسيوس الأول (٤٩١ - ٥١٨) من الحدّ من تفشّي الرشوة الرسمية، وذلك باهتمام بالغ بالإدارة المالية للامبراطورية، الأمر الذي أعاد لها عافيتها الاقتصادية والمالية، فانعدمت إمكانات المسؤولين العسكريين على التلاعب بشؤون الخزينة المالية. كما ظلّ جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية من القيادات العليا خارج نفوذ المرتزقة من البرابرة، فقد كان يعتمد على المواطنين الأصليين(١٤).

■ واقع الفرس الحضاري

ولا يختلف الأمرُ كثيرًا عن وضع الامبراطورية الفارسية التي كانت تجابه الحضارة الرومانية الشرقية، فلم تكن المناصب حكرًا على النبلاء فقط، بل كان ثمة مناصب خاصة وراثية لأسرٍ نبيلة معينة. يضاف إلى ذلك أن المنظمة الدينية الزرادشتية كانت ذات نفوذٍ في الامبراطورية الفارسية، على نحو ما كانت عليه الكنيسة المسيحية في امبراطوريتي قسطنطين وثيودوسيوس الرومانيين. كانت تلك المنظمة الزرادشتية مطعمة بالقومية الإيرانية، كما كان عليه الحال في الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية في المشرق: إذ طعمت بالقومية اليونانية.

في سنة ٤٤٠م أمر الامبراطور الساساني يزدجر الثاني جميع رعاياه الذين لم يكونوا من أتباع الزرادشتية أن يعتنقوها، واضطهد جميع الذين لم يقبلوا هذا الأمر، ولم ينتصر في هذه المقاومة سوى الأرمن.

غير أن كسرى أنوشروان بذكائه وحريته في العمل كان ينعم - أكثر من أسلافه - بتأييد رجال الدين الزرادشتيين، الأمر الذي مكّنه من القضاء على المزدكية في أواخر حكم أبيه. كذلك تمكّن من تحقيق إنجازاتٍ كبرى، عززت الوجود الحضاري الفارسي، فقد خفف من حدة الظلم الاجتماعي، وأصلح المؤسسات التي كانت وراء ما كان للنبلاء من سيطرة على العرش، مستفيدًا من درس التاريخ الروماني، فأعاد النظر في ضريبة الأرض، وضريبة الجزية، ففرض الضريبة على الأرض بما يتلاءم وإنتاجها، وعلى الأشخاص بما يتلاءم وثراءهم، وألغى منصب القائد العام، وعيّن مكانه أربعة قوّاد إقليميين(١٥).

في ظلّ هذا الوضع الدولي الذي تقاسمه (كسرى وقيصر)، وفي ظلّ تلك الإمكانات التي أشرنا إلى بعض أهم ملامحها فيما يتعلق بالعرب انبثقت رسالة الإسلام بقيادة الرسول محمد ﷺ، ينظمها القرآن الكريم بأهداف كبرى: عقائدية،

وسياسية، واقتصادية، وفكرية، واجتماعية، وأخلاقية.. إلخ.

■ الأسس الحضارية للدولة الإسلامية تستلهم المنهج القرآني والنبوي

فإذا كان من خطل الرأي وانحرافه أن يتصور إنسانٌ ما أن هدف الدعوة الإسلامية كان يقف عند حدود قيام دولة عربية إسلامية تنهي الوجود الكسروي والقيصري، فإنه من الخطل كذلك أن يغفل إنسان ما عن واحد من أهم النتائج الكبرى لانتصار الدعوة، هو القضاء على الوجود الحضاري الكسروي والقيصري من خلال الدولة العربية الإسلامية النبوية، التي قامت على أرقى الأسس التي تقوم عليها الدولة(١٦) وهي:

١ – الشورى (وأمرهم شورى بينهم)، (وشاورهم في الأمر).

٢ – المسؤولية الشمولية : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

٣ – الاجتهاد الحضاري : (أنتم أدرى بشؤون دينكم).

لقد أصّلت هذه القواعد، وما يصاحبها من قيمٍ وقوانين دستورية قرآنية ونبوية، لقيام (دولة التوحيد)، التي شملت الجزيرة العربية أولاً، ثم امتدت لتشمل العالم المعروف يومذاك عن طريق عمليات الفتح الإسلامي، التي حررت العالم من آثار الكسروية والقيصرية وغيرها من عقائد. وفي ظلّ هذا الانتصار الرائع انبثق العقل المسلم ينظر لهذا النصر المبين، ويبني علوم حضارة الإسلام في العقيدة، والفقه، والحديث، واللغة، والتاريخ، والفلك، والهندسة، والصيدلة، والطب.. إلخ. مستلهمًا المنهج القرآني والنبوي في تنظيم شؤون الإنسان والمجتمع والحضارة.

المبحث الثاني :

من النهضة إلى الخمول

الفقه الإسلامي هو العلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية أحكامًا ومقاصد، والعلم بشروط تنزيلها على الواقع في إطار منهاجية علمية إسلامية، تنظم إنتاج المعرفة في معالجة شؤون الإنسان والمجتمع والعالم، عبر فهمٍ دقيق لظروف الزمان والمكان وحاجاتهما المتنامية.

لقد عبّر القرآن الكريم، من خلال استعراضه لتاريخ التشريع في العالم منذ آدم عليه السلام إلى عهد الرسول محمد ﷺ عن الحقائق الآتية:

١ – إن أصل الدين واحد هو الله تعالى الذي شرع العقيدة والشريعة والمنهج ﴿**شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**...﴾(١٧).

٢ – إن أصل وحدة الدين لا تنفي تعدّد الشريعة والمنهج تبعًا لاختلاف التكوين الحضاري للمجتمعات الإنسانية ﴿**لكلّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا**...﴾(١٨).

٣ – إن تعدد الشرائع والمناهج يحكمها نبعٌ واحد هو التوحيد، فهو المنظم لحركتها ونموها.

لنستعين بالقرآن الكريم على فهم هذه المنهاجية الإلهية ومقاصدها..

لقد أجمع الأنبياء على توحيد الله تعالى في العبادة والاستعانة به، ولنا في سورة هود أنموذجًا قرآنيًا على هذه الدعوة النبوية:

– نوحٌ عليه السلام: ﴿**ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبين * أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يومٍ أليم**﴾(١٩).

- هودٌ عليه السلام: ﴿**وإلى عادٍ أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره إن أنتم إلا مفترون**﴾(٢٠).

- صالح عليه السلام: ﴿**وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**...﴾(٢١).

ومع دعوة التوحيد هذه، التي هي بناء الأساس العقائدي للإنسان، يرتبط البعد العملي المتمثل بأحكام أخلاقية واقتصادية وسياسية واجتماعية إلخ... تقيم الحق والعدل، ويرتبط بها كذلك أحكام عبادية من صلاةٍ، وصوم، وزكاةٍ، وحجّ، وتقرّب إلى الله من ذكرٍ ودعاء.

■ تطور حاجات الإنسان والمجتمع في إطار التطور الحضاري

في إطار التطور الحضاري للمجتمعات الإنسانية منذ آدم عليه السلام إلى عصر الرسول محمد ﷺ تتطور حاجات الإنسان والمجتمع، فمجتمع آدم غير مجتمع نوح، ومجتمع نوح غير مجتمع إبراهيم أو موسى عليهم السلام. وتلك المجتمعات غير مجتمع اليوم وحضارته ومستلزماتها.

لقد رافقت رعاية الله تعالى تطور الإنسان من الطبيعة إلى الحضارة، مرورًا بالقرية فالمدينة.. وهي الأشكال المجتمعية الأساسية التي قامت عليها الحضارات الإنسانية. وتمثلت هذه الرعاية الإلهية بالدعوة إلى تركيز التوحيد في ثنايا الوجود الإنساني، وبتعدد التشريعات العملية المرتبطة بتطور حاجات الإنسان والمجتمع. إن الحكمة في هذا كله تكمن في الانتباه إلى معاني تطور المجتمعات الإنسانية ذات العقل والإرادة، وإلا فما الفرق بين أمة الإنسان وأمة النمل والنحل..؟

﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾(٢٢).

إنها نعمة الاختيار الإنساني لنعمة التوحيد ومعطياته العلمية والعملية والأخلاقية، أو نعمة الاستجابة لدعوة الشرك ومعطياتها، وفي ضوء هذا الاختيار يتحدد الثواب والعقاب. ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾(٢٣).

■ من حكمة الله إعطاء كل عصر حاجاته

قلنا آنفًا إن حاجات الإنسان تختلف من عصرٍ إلى آخر، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يمدّ كل عصرٍ بحاجاته التشريعية. هكذا يوضح القرآن هذه القضية:

أ - عصر آدم:

في عصر آدم عليه السلام، حيث كان المجتمع الإنساني مجتمعًا طبيعيًا في دور التكوين، شرع الله تعالى لهذا المجتمع ما ينظم حاجاته:

قال القرطبي في تفسر قوله تعالى: ﴿**إني جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾(٢٤): إن المراد بالخليفة آدم عليه السلام، وهو قولُ ابن مسعود وابن عباس؛ لأنه أول رسول إلى الأرض، كما في حديث أبي ذر قال: (قلت: يا رسول الله أنبيًا كان مرسلاً؟ قال: نعم..) الحديث. قال القرطبي: ويقال لمن كان رسولاً، ولم يكن في الأرض أحد، فيقال: كان رسولاً إلى ولده، وكانوا أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، وفي كل بطن ذكرٌ وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا، كما قال تعالى: ﴿**خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساءً**﴾(٢٥).

لقد علَّم الله تعالى آدم عليه السلام كل ما يحتاج إليه من هديٍ وشريعة، من حلالٍ وحرام وأخلاق:

أولاً : زواجه من حواء، وزواج أبنائه بعضهم من بعض

كان هذا أول تشريعٍ للزواج، وبقي ذلك سنة في شرائع الأنبياء والناس سواء، قال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذريّة﴾**(٢٦).

ثانيًا : تحريم قتل النفس بغير حق، وما يصاحب ذلك من إثمٍ كبير

قال تعالى: **﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قربانًا فتُقبّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر قال لأَقتلنَّك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين * إني أريدُ أن تبوء بإثمي وإثمك فتكونَ من أصحابِ النار وذلك جزاء الظالمين﴾**(٢٧).

ثالثًا : تغسيل الميت وتكفينه ودفنه

كان قابيل يجهل كيف يعالج جثة أخيه، فبعث الله الغراب يعلمه كيفية المواراة. وفي هذه حكمةٌ بالغة، أشار إليها القرآن الكريم حكايةً على لسان قابيل: **﴿قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾**(٢٨).

لقد استصغر قابيل نفسه أمام هذا المشهد الذي كشف عن عجزه في معالجة جريمته، التي شاء الله تعالى أن يكون المعلم فيها حيوانًا وليس إنسانًا يمارس قتل أخيه الإنسان(٢٩).

أما عن الغسل والتكفين، فقد جاء في مسند أحمد: أنه لما توفي آدم عليه السلام جاءت الملائكة بأكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس، فقبضوه، وغسلوه، وكفنوه، وحنطوه، وحفروا له، ولحدوه، وصلّوا عليه، ثم أدخل قبره، ثم حثوا عليه التراب، ثم قالوا: (يا بني آدم هذه سنتكم)(٣٠).

رابعًا : ستر العورة

قال تعالى: **﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة..﴾**(٣١).

قال ابن العربي: «وإن سترها كان بأمر الله: لأن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام علّمه الأسماء، وعرّفه الأحكام، ومن جملة الأحكام ستر العورة»(٣٢).

ب - ما بعد آدم

بعد عصر آدم يستعرض القرآن الكريم التطور التشريعي الذي رافق تطور الحضارة الإنسانية يومئذٍ، وهذه المرة من عصر نوحٍ عليه السلام، عصر ظهور القرية في تطور الحضارة الإنسانية، ولا سيّما شريعة موسى وعيسى عليهما السلام.

أولاً : الزواج

في شريعة آدم كان زواج الأخت من أخيها جائزًا، ثم حرّم في شريعة نوح وشريعة موسى عليهما السلام. فقد جاء في الكتاب المقدس: (عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجًا لا تكشف عورتها)(٣٣).

وجاء في القرآن الكريم: **﴿حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم...﴾**(٣٤).

ثانيًا : عقوبة الزنا

كانت عقوبة الزنا الرجم كما في شريعة موسى، فأصبحت في شريعة محمد ﷺ الرجم للمحصن، والجلد لغيره.

ثالثًا : عقوبة القتل

في شريعة موسى عليه السلام كان القصاص

عقوبة للقاتل، وفي شريعة محمد ﷺ القصاص والدِّية جميعًا.

ومثل ذلك كثير فيما يتعلق بالرهبنة وشحوم البقر والغنم، وتحريم العمل يوم السبت، والانتفاع بالغنائم، وغيره مما خففته شريعة الرسول محمد ﷺ على الإنسان بما خصها من الفضل والتكريم(٣٥)، وما يتناسب مع تطور الحضارة والإعداد لحضارةٍ جديدة.

■ في القرآن الأسس العامة لممارسة البناء الحضاري

كان القرآن الكريم آخر رسالات الله تعالى إلى البشرية، التي كشف بها عن الخصائص الكلية للحضارات الإنسانية وحاجاتها، ووضع الأسس العامة لممارسة البناء الحضاري لوجود إسلامي معاصر، يهتدي بالوحي من خلال دعوته إلى اكتشاف سنن الحضارات الإنسانية السابقة وحركتها، والاستفادة من (العِبَر) التي احتوتها تلك الحضارات، بكل ما قدمته من معارف ومناهج وسلوكيات في التفاعل مع التوحيد أو الابتعاد عنه.

إن من أهم معطيات الدرس التاريخي القرآني أن الماضي دائمًا خبرة وعبرة في التجاوز والارتقاء إلى المستقبل الأفضل في ظلّ الهدي القرآني في بناء الإنسان والعالم.

وعندما اكتمل الدين على يد الرسول ﷺ، وابتدأ الانفتاح على حركة الحضارات في ضوء فهم الهدي القرآني، كان العقل المسلم ينمو نضجًا وعطاءً، ابتداءً من عصر الرسول وفي رعايته، في ظل الواقع المعاش يومذاك بكل عناصره ومكوّناته البسيطة، إلى التوسع الشامل لعمليات الفتح الإسلامي بكل تعقيداته. وفي كل مرحلة وبيئة حضرها الإسلام كان العقل المسلم يعالج الحاجات العملية بعقلٍ منفتح على الوحي والواقع. فأفلح الفقه، ومن ثم أصوله، في مراحل النضج والإبداع، في تجسيد العلاقة بين الوحي (قرآنًا وسنّة) وبين الواقع، فأسهم في النهضة الحضارية الإسلامية التي أرادها القرآن الكريم للإنسان المسلم والمجتمع المسلم.

■ دور الفقه في حركة التاريخ الإسلامي والحضارة

كان الفقه قادرًا على استحضار الرؤية القرآنية والنبوية للعالم في حركة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، من خلال تصديه لتحديات الواقع، عبر منهجية أصولية إسلامية بارعة الدقة في فهم النص وتنزيله على أرض الواقع، ومعرفة ما إذا كان النص ما زال يحقق مقصد الشارع منه أم لا، فيُستبدل بحكمٍ آخر. ولنا في تغريب الزاني مثلاً على ذلك.

كانت البيئة الحجازية بتجانسها الحضاري الذي حققه الرسول محمد ﷺ كافية لإصلاح الزاني وإعادته إلى حظيرة الأخلاق والدين، في حين كانت البيئة العراقية لا تتسم بذلك التجانس، بسبب تعدّد الروافد الحضارية فيها من سريانية، وآرامية، وفارسية، فلا تحقق – إذًا – مقصد الشارع من التغريب، الأمر الذي جعل الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يعدل عن النفي إلى السجن، ويقول: (إذا زنى البكر بالبكر يجلدان مئة، ويحبسان، ومن الفتنة أن ينفيا)(٣٦).

وكذلك الأمر فيما أقطع رسول الله ﷺ بلال بن الحارث من أرضٍ عريضة، فبقيت بيده إلى خلافة عمر بن الخطاب، فمرّ بها يومًا، فوجدها غير محياة، فقال لبلال: يا بلال، إنك لا تطيق إحياء ما في يدك، فقال بلال: أجل، فقال عمر: انظر ما قويت على إحيائه منها، فامسكه، وما لم تطق، ولم تقوَ عليه، فادفعه إلينا؛ لنقسمه بين المسلمين. فقال بلال: لا أفعل والله شيئا أقطعنيه رسول

الله، قال عمر: والله لتفعلن، وأخذ منه ما عجز عن عمارته، فقسمه بين المسلمين(٣٧).

لقد انتفى مقصد الشارع من الإقطاع، الذي يتمثل في الإحياء والعمارة سدًا لحاجات المسلمين من خلال زيادة الإنتاج الزراعي، وما يصاحبه من زيادة في الدخل، وما يرافق ذلك من أثرٍ توزيعي.

■ المنهج الإسلامي يوحد التنوع في العطاء الفقهي

لقد انشغل العقل المسلم بشؤون تنزيل الأحكام على الواقع، وتصنيف مسائل الفقه وتنظيم مباحث أصوله؛ لمواجهة التحديات التي واجهت الإسلام والمسلمين، في إطار منهجية علمية إسلامية وحدت التنوع في العطاء الفقهي والأصولي على النحو الآتي:

١ - الحفاظ على الأصالة والمأثور: إذ في التخلي عنهما يعني غياب الهوية الإسلامية في أرض الإسلام، أما فيما يستجد من أمور، فكانوا يستحسنون الاجتهاد الجماعي، فهو أكثر إصابة.

٢ - التماس مقاصد الشارع في الواقعات المستجدة، فيتجهون لتحقيقها كما ذكرنا على ذلك أمثلة.

كان هذا في عهد صحابة الرسول رضوان الله عليهم أجمعين، أما في بدايات القرن الثاني الهجري، يوم هجمت الفلسفات الأجنبية على ساحة الإسلام والفكر الإسلامي من خلال الترجمات التي قام بها خالد بن يزيد (٩٠هـ)، والتي بلغت ذروتها في عصر المأمون (ت ٢١٨هـ)، ومن خلال المترجمين غير المسلمين مثل آل بختيشوع، وابن البطريق، وابن ماسويه، وحنين بن إسحق، وغيرهم. فقد تصدى لها الفقهاء والمتكلمون كلٌّ في ميدان عمله حين أدركوا أن دخول هذه المناهج حقل الفقه يعني إفساد هويته الإسلامية المحضة، فنهض حشدٌ من الرجال إلى جمعِ أحاديث الأحكام، كما فعل أبو حنيفة، ومالك، وسفيان الثوري، وابن أبي شيبة، والشافعي، وتلامذتهم الكبار، رحمهم الله جميعًا، فأوقفوا هذا الغزو الفكري بإبداعاتهم المنهجية الأصولية، التي استلهمت القرآن الكريم والسنة النبوية في الدفاع عنهما والحفاظ على فاعلية العقل المسلم في صنع حضارةٍ إسلامية صافية المنابع، وموحدة المرجعية العقائدية.

ولا نبتعد عن الحقيقة كثيرًا إذا ما قلنا إن (رسالة) الشافعي كانت الشاهد على حرص العقل المسلم على البحث المنهجي والمقاصدي، التي مثلت ذلك العصر خير تمثيل من خلال تعاملها مع القرآن والسنة تعاملاً منهجيًا علميًا مصنفًا، كانت أساسًا للدراسات المنهجية الأصولية اللاحقة، التي لم تستطع أن تخرج من أسرها سلبًا أو إيجابًا، مثل كتابات داود الظاهري (ت سنة ٢٧٠هـ) (الإجماع)، و(إبطال التقليد)، و(خبر الواحد)، و(الخبر الموجب)، و(الخصوص والعموم)، و(المفصل والمجمل)، و(الكافي في مقابلة المطلبي)، يعني الشافعي، وكتاب (مسألتين خالف فيهما الشافعي).

كذلك كتابات الحنفية التي عكفوا فيها على دراسة رسالة الشافعي للرد على ما خالفهم فيها، ولاستخلاص أصول لفقههم من خلال فتاوى الإمام أبي حنيفة، رحمه الله، في المسائل الجزئية، التي عرضت عليه. فكتب عيسى بن أبان (ت ٢٢٠هـ) كتابًا في (خبر الواحد)، وكتاب (إثبات القياس)، و(اجتهاد الرأي).

وكتب البرزعي (ت ٣١٧هـ) (مسائل الخلاف)، والطحاوي (ت ٣٢١هـ) (اختلاف الفقهاء)، وكتب الكرابيسي النجفي (ت ٣٢٢هـ)، وكتابه (الفروق)، وغيرهم كثير.

واهتم علماء الشافعية بالرسالة، فكتبوا فيها وعنها الكثير. كتب أبو ثور كتاب (اختلاف الفقهاء)، وكتب المروزي (ت ٢٩٤هـ) كتابه (في اختلاف الفقهاء).

ولأني لست بصدد استعراض هذا الكم الهائل من شؤون الفقه وأصوله، مما يخرجني من نطاق بحثي.. إلا أني أشير إلى القيمة الحضارية العليا لهذا الإسهام الرائع، الذي طبع آثاره على العالم إلى يومنا هذا. وأشير إلى أن هدف هذا البحث الرائع في الفقه وأصوله ومقاصده، الذي قدمه الأوائل، كان يحركه هاجس حضاري كبير، هو إقامة حكم الله في الأرض من خلال تطبيق منسجم مع الواقع. وهو المنهج القرآني ذاته الذي أشرنا إليه في مقدمة البحث، الذي يبقى دليل عمل للعقل المسلم في تنظيم الواقع وتأسيس حضارة شاهدة على العالم بالعدل والحق. وهذا ما افتقده العقل المسلم منذ بدايات القرن السادس الهجري حين تخلى عن دوره الحضاري لصالح الكسل والخمول وسلاطين الجور، فعمّت البلوى، وانكسرت الحضارة، وأفلت شمس إبداعها، أو حجبتها غيوم التقليد، والشرح، وشرح الشرح، والحواشي، وشرح الحواشي، وشرح لحاشية الحواشي، فهجر القرآن، وهجرت السنة، وهجر الإبداع الحضاري، فانسحق الإنسان المسلم بين تياراتٍ علّبته في حفر التاريخ، أو مسخته باجترارها الفكر الغربي دون نقدٍ وتمحيص. الأمر الذي بات معه التفكير بفقهٍ حضاري جديد يحترم جهود الأولين، ويفهم مقاصد الشريعة، في ضوء متغيرات القرن العشرين، الذي بقي من عمره أقل من سنتين أمرًا ضروريًا، وضرورة شرعية.

المبحث الثالث :

نحو فقهٍ حضاري معاصر

إن استلهام المنهجية القرآنية والنبوية في البناء المعرفي، وفي مقدمته بناء الفقه، وفي تنظيم الوجود الإنساني بعامة، والإسلامي بخاصة، وتكوين العلوم والمفاهيم، وبناء النظريات الإسلامية في تفسير ظواهر الوجود، هي المقدمة الضرورية في تأسيس فقهٍ حضاري معاصر. ذلك أن المنجز الفقهي السائد في المؤسسة الدينية الإسلامية أسهم كثيرًا في تعميق الفردية والشخصانية عند الإنسان المسلم، من خلال تعميق الاهتمام بالسلوكيات الفردية، التي حصرت الإنسان المسلم في دائرتها، والاهتمام بالأشخاص أكثر من الاهتمام بالحقيقة، فانعدمت فيه القدرة على فهم طبيعة العلاقة بين القرآن والواقع، وبين السنة والواقع، وبين الفقه والواقع، وبين العقل والواقع، وبين الحكمة والعلم، وبين الدين والحياة.

والفقه الحضاري المعاصر لا يعني خلق دينٍ جديد، ولا يعني نقضًا لفقه الأولين، وإنما يعني فهمًا جديدًا للدين في إطار الصراع الحضاري، الذي يشهده العالم، والذي تظهر فيه الحضارة الإسلامية مستلبة إلى حدّ كبير، أفقدها كل قدرة على الإبداع والعطاء الإنساني والمعرفي والعلمي، وأفقدها دورها الذي أراده لها الله تعالى لتكون شاهدة على الناس.

والفقه الحضاري المعاصر المطلوب ينبغي أن يتفرغ لإعادة هذا الشهود إلى مكانته العلمية؛ لتتمكن الأمة من الإسهام في قيادة الإنسانية إلى منابع النور والحق والعدل، كما هي في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

والخطوة الأولى في هذا الجهد إعادة وضع الإنسان إلى مكانته الحقيقية التي أرادها الله تعالى له، وهي (الخلافة في الأرض): إذ في هذا الموقع يستعيد الإنسان المسلم موقعه الإنساني، فيتخلص من مآسي الحيرة، والقلق، والتردد، وتنازع الأفكار، والثقافات، التي لا تنفك عن تمزيقه عبر قنوات الفكر الغربي ومؤسساته المتعددة؛ إذ في

نحو فقهٍ حضاري معاصر «رؤية منهجية قرآنية»

هذا الموقع الاستخلافي يتحقق السلام الروحي والمادي بين المعقول والمنقول.

لذلك فالدعوة إلى الفقه الحضاري المعاصر المطلوب يعدّ ضرورة شرعية وضرورة حضارية استنادًا إلى ما يلي:

١ - تثوير معاني القرآن الكريم واجبٌ علمي شرعي في إطار حركة الحضارة الإنسانية، وتنزيله على الواقع ضرورة شرعية، ما دام القرآن الكريم لم يكن كتابًا لأمة معينة، وإنما هو للعالم أجمع رحمةً وهدى، وما دام القرآن ليس لزمانٍ معيّن، وإنما لكل الأزمنة.

٢ - استلهام مناهج القرآن في توجيه العقل المسلم؛ لبناء العلوم والمعارف الإسلامية الاجتماعية والطبيعية والإنسانية، من خلال فهم الوحي، يجعل للتكليف العلمي المتمثل بأعمال العقل والنظر في ظواهر الوجود الإنساني والحضاري والطبيعي قضية شرعية.

٣ - استلهام المفاهيم القرآنية في تطوير المفاهيم الحضارية والعلمية والفكرية بما يحقق انسجامها مع الوحي والتوحيد يعد ضرورة شرعية.

وعلى ذلك فإن الفقه الحضاري المعاصر المطلوب استلهام معاصر لمنهجية القرآن والسنة القائمة على التوحيد بين الوحي وحاجات الأرض، وسيدها الإنسان، في إطار حركة التاريخ، التي حددها القرآن الكريم في (المداولة)، ففي حركة المداولة هذه، صعودًا أو هبوطًا في حركة الحضارة، مؤشرٌ دائم على إمكانية الافتراق بين الوحي (المثال) والواقع (الإنسان، الحضارة). وفي القرآن الكريم منهجية معالجة عوامل السقوط الحضاري، أو دفع النهضة الحضارية من خلال تصحيح حركة التاريخ عبر (التدبّر) الدائم للقرآن لاستنباط تلك العوامل.

والفقه الحضاري المطلوب هو تجسيدٌ جديد للمنهج القرآني القائم على وحدة العقيدة والوجود بعناصره الروحية والمادية والأخلاقية.

والفقه الحضاري المطلوب ينبغي أن يكون فقهًا شعبيًّا، يصنعه العلماء والرعية معًا. العلماء بجهودهم العقلية والمعرفية، والرعية بتعاطفهم العقلاني الإسلامي المفتوح على آفاق القرآن الكريم الرحبة، وعلى آفاق السنة النبوية المطهرة، وعلى آفاق الواقع المتحرك. لذلك ينبغي إلغاء عقلية (النخب الفقهية) التي تحتكر سلطة إصدار القرار الفقهي، والعمل على سيادة عقلية إسلامية اجتماعية تحترم جهود العلماء، وتحترم عقل الإنسان بزجه في المشاركة في البناء الحضاري، وذلك من خلال إفهامه مسؤولياته العلمية مثلما أُفهِم مسؤولياته العبادية.

والفقه الحضاري المطلوب ينبغي أن لا يقتصر تعامله مع الوحي في دائرة اللغة والسياق اللغوي على ضرورتهما فحسب، بل ينبغي الاهتمام بالسياق الظرفي والنفسي والحضاري المعاصر وفق المنجزات العلمية والمنهجية المعاصرة، من خلال وعي الواقع بكل مكوناته الإنسانية والعلمية والنفسية، في سياق الحضارة المعاصرة وتحدياتها المتعددة.

ومن أجل إنجاز مثل هذا الفقه لا بدّ من منهجية أصولية جديدة، تطور المناهج القديمة، وتصنع قواعدها الجديدة في التعامل مع القرآن الكريم والسنة المطهرة، وتسعى إلى توحيد الوحي والتأمل والتجربة والإنجاز والتجاوز الحضاري، من أجل استنهاض القوى الإنسانية والسلوكيات الإسلامية والقيم الإسلامية النابعة من التوحيد،

مثل التقوى والاستقامة والإحسان والاستغفار والتوبة وغيرها. وهي كلها مفاهيم عملية لها أثرها في فعل قانون (إعمار العالم) وفق الهدي الإلهي.

والفقه الحضاري المطلوب، حتمًا، ليس منبتّ الصلة عن جذوره التاريخية، فالخبرة التاريخية في مجال الفكر وعطائه جزء من البصيرة الحضارية المعاصرة، التي لا تتكوّن من فراغ، وإنما تتكون من تفاعل بين المنطلقات، والأهداف، والعقل، والواقع، واللغة، والزمان، والمكان، والإنسان، والحركة، والتاريخ، والحياة. إن البصيرة الحضارية نتاج رؤية شمولية وكليّة على مستوى المنهج والعلم والمعرفة والفعل. وكلما تعمقت هذه البصيرة كان العطاء الفقهي أكثر انسجامًا مع الواقع، وأكثر استيعابًا لشؤون الحضارة، وبذلك يكون فقه حضارة/ إنسان. لا فقه فردٍ معزول.

والفقه الحضاري المعاصر المطلوب جهدٌ عقلاني إسلامي، يعمل على إلغاء الفارق الكبير بين الإرادة الإنسانية المسلمة في نصرة الدين، التي هي من أهم مهماتها الحضارية، وبين الإمكانات العاجزة علميًا ومنهجيًا وعمليًا، التي هي عليها اليوم.

والفقه الحضاري المطلوب فقه وحدة العقيدة، والعمل على تأسيس رؤية إسلامية معاصرة، تنقض – في التوحيد العملي ومن خلاله – الرؤية الغربية المادية القائمة على فصل الدين عن العلم والحياة، وتنقض الغلو التخصصي الأحادي الرؤية، الذي يرى أن العلوم الشرعية هي العلوم فقط، وغيرها باطل وقبض ريح.

والفقه الحضاري المعاصر المطلوب ينبغي أن يعيد للتدين – بوصفه كسبًا بشريًا – مكانته الفاعلة في إعمار العالم: لأنه فقهٌ شمولي منهجي، يمدّ الإنسان والمجتمع بالقدرات العملية والعلمية والمنهجية، على تفسير العالم وبنائه وتغييره على وفق الهدي الإلهي.

والفقه الحضاري المعاصر المطلوب ينبغي أن يعيد النظر في فهم الخطاب القرآني والنبوي؛ لينفتح على الحاجات المختلفة للحضارة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والسياسية. لذلك لا بدّ من معالجته الموضوعات القرآنية الكبرى، الكلية، التي تسهم في فهم الوجود، مثل (فقه الحضارة)، و(فقه التمكين)، و(فقه القوة)، و(فقه الجمال)، و(فقه الحرية)، و(فقه الدولة)، و(فقه الدستور)، و(فقه الاستخلاف)، و(فقه التجاوز)، و(فقه الشورى)، و(فقه الاستعداد الحضاري)، و(فقه الطفولة).

فالفقه الحضاري المعاصر المطلوب يعني إدراكًا لقوانين الحضارة وقوانين الوجود في ضوء منهجٍ جديد في التعامل مع القرآن الكريم والسنة المطهرة في إطار تصوّر إسلامي، يقف إزاء القرآن الكريم، كأنه نزل عليه اليوم. فالقرآن الكريم ليس كتابًا ضمّ موضوعاتٍ معينة وقصصًا متعددة، كلا، إنه علمٌ إلهي دائم الحضور والنزول على البشرية، ما دامت الحضارات الإنسانية في حركة. يعالج متغيراتها بثوابته على مستوى الفكر والمنهج والعلم والمعرفة والحياة. وفي ظل هذا الفهم فإن الفقه الحضاري المعاصر المطلوب يعني تشخيص الأسئلة الحضارية الكبرى، وتحديد الإجابة عنها في ضوء التعامل الجديد مع القرآن الكريم والسنة النبوية. إنه قراءة معاصرة للقرآن الكريم، الذي هو كتابٌ معاصر، دائم المعاصرة للبشرية.

وما دام تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ينبغي لهذا الفقه أن يكون واحدًا من أهم مكونات المشروع الحضاري الإسلامي في الرد على المشروع الحضاري الغربي، الذي ما انفك يكيد للعقل المسلم، ويتهمه، في بنيته وتكوينه

النفسي، بأنه قاصرٌ عن فهم الحضارة، وفهم قوانينها، وعاجزٌ عن الإسهام في صنعها. لذلك لا بدّ أن يكون تابعًا مطيعًا للمنجز المعرفي الغربي ومستهلكًا له فقط.

والفقه الحضاري المعاصر المطلوب يعني إعادة عالمية الإسلام إلى موقعها الفاعل في إعادة التكوين الإنساني للحضارات المادية القائمة اليوم، وإخراج الإنسانية من ظلام المادة إلى نور التوحيد من خلال إعادة قراءة الوحي في ضوء الوجود، وإعادة قراءة الوجود في ضوء الوحي؛ لتستعيد الإنسانية إنسانيتها حقًا، من خلال فهمها لوظيفتها ومكانتها في العالم.

الخاتمة

هي بداية المشروع في بناء الفقه الحضاري المطلوب ليعيد للأمة الإسلامية، وفي مقدمتها الأمة العربية، وحدتها وتماسكها ونهضتها، لذلك لا بدّ من المقترحات الآتية:

١ - تطوير الجامعات الإسلامية بالقضاء على ما تشهده من فصلٍ بين الدين والعلم، وإدخال الدراسات والعلوم الشرعية إلى الكليات كافة؛ لتستعيد العلوم الإسلامية وحدتها مع التوحيد.

٢ - تطوير دراسات طرق التدريس على وفق المناهج الإسلامية والرؤية الإسلامية؛ لتستعيد العلوم الإسلامية وطلابها أصالتها وخصوصيتها.

٣ - إدخال التخصصات العلمية والاجتماعية في الجامعات المتخصصة بالعلوم الشرعية؛ لإلغاء هذا الغلوّ في التخصّص في العلوم الشرعية؛ الذي لم تشهده الحضارة الإسلامية في عصورها الأولى، عندما كان الفقهاء علماء في اختصاصاتٍ متعددة طبعت عطاءهم العلمي بالموسوعية.

إن العالم اليوم مشغولٌ باستقبال القرن الحادي والعشرين. فليكن هذا المشروع بعض مشاغلنا باستقبال هذا القرن الآتي.

●●●

الحواشي

١ - آل عمران : ١٤.

٢ - البقرة : ١٤٣

٣ - هود : ٦١

٤ - هود : ٨٨

٥ - المؤمنون : ٨٤ - ٨٩

٦ - العنكبوت : ٦١

٧ - الزخرف : ٨٧

٨ - الزمر : ٣

٩ - يوسف : ١٠٦

١٠ - الأنعام : ٢٩

١١ - البقرة : ٦٢

١٢ - محاضرات في تاريخ العرب: ١/٧٩.

١٣ - الأنعام : ١

١٤ - تاريخ البشرية: ٢/ ٣٦ - ٣٨.

١٥ - المصدر نفسه.

١٦ - لمزيد من التفاصيل، انظر: العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته: ٤٢ - ٤٤.

١٧ - الشورى : ١٣

١٨ - المائدة : ٤٨

١٩ - هود : ٢٥ - ٢٦

٢٠ - هود : ٥٠

٢١ - هود : ٦١

٢٢ - هود : ١١٨ - ١١٩

٢٣ - الملك : ١٠

٢٤ – البقرة : ٣٠

٢٥ – النساء :١

٢٦ – الرعد : ٣٨

٢٧ – المائدة : ٢٧ – ٢٩

٢٨ – المائدة : ٣١

٢٩ – نشأة الفقه وتطوره وعلاقته بالوحي، ندوة علوم الشريعة في الجامعات: ١/٢٨٦.

٣٠ – مسند أحمد، ٥/١٣٦.

٣١ – الأعراف : ٢٢

٣٢ – أحكام القرآن : ١/٣٢.

٣٣ – سفر اللاويين : ١٨/٩.

٣٤ – النساء : ٢٣

٣٥ – نشأة الفقه وتطوره وعلاقته بالوحي، ندوة علوم الشريعة في الجامعات: ١/ ٢٨٨ – ٢٨٩.

٣٦ – موسوعة فقه الإمام علي بن أبي طالب: مادة: زنا/ ٥ أ ٢ أ. ذكره د. محمد رواس قلعجي في بحثه «منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة» مؤتمر علوم الشريعة، ص ١٥٩.

٣٧ – الأموال.

مصادر البحث

– القرآن الكريم.

– الكتاب المقدس.

توينبي : أرنولد.

– تاريخ البشرية، ترجمة د. نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢.

الجابري : محمد عابد.

– العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، ط٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥م.

ابن حنبل : أحمد.

– المسند ، الطبعة الأولى.

أبو عبيد : القاسم بن سلام

– الأموال، ط١، دار الفكر، القاهرة، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١م.

ابن العربي.

– أحكام القرآن . تح. علي محمد البجاوي، دار الفكر.

العلي : صالح أحمد.

– محاضرات في تاريخ العرب، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨١.

قلعجي : محمد رواس.

– منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة، بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات الواقع والطموح، تحرير د. فتحي حسن الملكاوي ود. محمد عبد الكريم أبو سل، ط١، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥م.

نصار : خليل.

– نشأة الفقه وتطوره وعلاقته بالوحي، بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات: الواقع والطموح.